

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة الخامسة

البيان العلمي للعقيدة الإسلامية

أيها الإخوة والأخوات هذه هي المحاضرة الخامسة من محاضراتنا في دراسة العقيدة الإسلامية بالمنهج العلمي كنا نتكلم في آخر محاضرتنا السابقة عن مصير نظريات النشوء والارتقاء أمام قرار الله سبحانه وتعالى في محكم كتابه بأنه قد خلق الإنسان في أحسن تقويم وقد عرفنا أن هذه النظريات كلها قد حُكِمَتْ وانتقدت انتقاداً كلياً من قبل الغربيين قبل أن تنتقد من قبل المسلمين وعلمائهم، وقلنا في آخر محاضرتنا إن الاكتشاف العلمي الذي قصم ظهر نظريات التطور كلها ما مضى منها وما هو آت هو: قانون الصبغيات فقد عرف العلماء أن في داخل الخلية الإنسانية هذا الذي يسمونه بالشريط الوراثي وهو معني بكلمة الكروموزومات هذا الشريط الوراثي يتضمن إشارات ودلائل على خلقة الإنسان في مظهره وشكله وعلى أخلاقه وطبائعه وسجايه في داخل كيانه، وإذا عرفنا هذا فقد تبين أن ما يتمتع به الإنسان من مظهر وما يتصف به من أخلاق كل ذلك نابع من داخل كيانه ولم يأت به تطور من الطبيعة أو البيئة أو عامل الصراع، فقد قضى على تلك التصورات والفرضيات المتطوِّحة هذا القرار العلمي.

ومع الأسف لو أن العلماء يعودون إلى حظيرة الإيمان بالله لأراحهم الإيمان بالله عز وجل ولوقروا على أنفسهم الجهد والوقت، ولما رحلوا تلك الرحلة المضنية وهم يتقلبون من فرضية إلى فرضية، إلى فرضية الباري عز وجل قال **(هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً)** أي خلقنا الإنسان من نطفة ذات أخلاط من الطبائع المختلفة طبائعه مولودة في نطفته لكي تكون هذه الطبائع مادة ابتلاء له فيما بعد، هذا قرار الله قبل أن يكتشف العلماء قصة الكروموزومات والصبغيات .

ولعل البعض منكم يقول: إنني أتكلم عن هذا بعد أن سمعت كلام العلماء عن الصبغيات نعم أيها الإخوة لعلكم تتهموني بأني نقلت كلام العلماء وأوثقته بالقرآن ولكن الفخر الرازي من أين جاء بهذا؟ ارجعوا إلى تفسير الإمام الرازي الذي توفي قبل أكثر من خمسة قرون وهو يفسر قول الله عز وجل **(إنا**

خلقنا الإنسان من نطفة أم شاج انظروا وهو يقول أي أن الله خلق الإنسان من نطفة فيها أخلاط من الطبائع فهي نواة طبائعه وصفاته وسجاياه، هذا الكلام موجود موجود في تفسير الإمام الرازي، ولكن الذي لا يقرأ الإسلام يمكن أن يتصور أن الغرب وحده والعلماء الغربيون وحدهم هم ينبوع كل معرفة وعلم أسأل الله عز وجل أن يمتعنا بشيء من التحرر العلمي.

وبعد هذا فاسمعوا كلام الله الذي فيه غناء عن كل مزيد، انظروا إلى قول الله عز وجل بعد أن حدثنا عن خلق الله بعد أن حدثنا عن خلقه سبحانه وتعالى لآدم وكيف أن الله خلق الإنسان منذ يومه الأول بأحسن تقويم، وانظروا إليه إذ يقول بعد ذلك **(ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم وما كنت متخذ المضلين عضداً)** أليس هذا الكلام رداً واضحاً على نظريات التطور اليوم، ما أشهدتهم ما أريتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ما أطلعهم على خلق أنفسهم، وما كنت متخذ المضلين عضداً ما كنت لأتخذهم يوماً شركاء لي في الخلق، فيا عجباً لمن يسمع هذا الكلام ولا يدخل بمجامع نفسه وقلبه ولا يذيب هذا الكلام كل ضحالة الأفكار والفرضيات التي يسمعها من هنا وهناك.

إذن أخذنا جوابنا عن السؤال الذي طرحناه ماذا نصنع بنظريات النشوء والارتقاء نمزقها ونضعها تحت أقدامنا لأننا رواد علم ومعرفة وما كان اعتناق هذه النظريات إلا مظهراً من مظاهر الفرضيات الغيبية التي يعوزها المنهج العلمي، إذن ماذا بقي مما يجب أن نعرفه عن الإنسان هذا كل ما أمرنا الله عز وجل به أن نعرفه عن الإنسان أنه أفضل مخلوق أنه خلق من حيث الجنس من تراب وتكاثر من حيث النوع من أبيه آدم عليه الصلاة والسلام ثم من حواء ثم إن الإنسان منذ فجر وجوده خلق بأحسن تقويم كما قال الله عز وجل.

بقي أن هنالك كلاماً يقوله كثير من علمائنا: ابن خلدون ابن مسكويه، الغزالي، قد يختلط على بعض السطحيين من المسلمين فهمه، نظرية من نظريات التطور لا أيها الإخوة ابن خلدون ابن مسكويه آخرون وأنا أقول وكلكم تقولون يقولون: انظروا إلى تصنيف الله لمخلوقاته كيف درّجت في التشابه، فالمخلوقات أدنى درجاتها الجامدات ثم أعلى منها بدرجة النباتات ثم أعلى منها بدرجة الحيوانات العجماوات ثم أعلى منها الإنسان لما خلق الجامدات جعل الجامدات أنواعاً أرقى أنواع الجامدات انظروا إليها تكاد تشبه أدنى أنواع النباتات وعندما تنظر إلى النباتات وتصانيفها تنظر فترى النباتات أيضاً متنوعة تنظر إلى أرقى نوع من أنواع النباتات فتجدها تشبه أدنى نوع من أنواع الحيوانات العجماوات ثم

تسيح في عالم الحيوانات العجماوات فتجدها ترتقي ترتقي حتى تجد صنفاً منها كالقردة مثلاً تجدها أرقى نوع من أنواع الحيوانات يشبه أدنى طرف من أطراف الإنسان، هذا شيء ملاحظ هذا وصف لخلق الله عز وجل ممن خلق منذ أن خلق الأرض والنباتات والحيوانات والإنسان جعل فيها هذا التدرج ويشبه ابن مسكويه هذه الظاهرة برجل صنع عقداً جعل الحبة الأولى في الطرف صغيرة ثم جعل التي تليها أكبر ثم التي تليها أكبر ثم التي تليها أكبر إلى أن يصل إلى واسطة العقد هو صاغ كل حبة باستقلالها لكنه جعلها متشابهة متدرجة.

إياكم أن تتصوروا أن هذا نوع من أنواع التطور أو نظرية من نظريات التطور هذا واقع نراه وهذا شيء يدل على دقة حكمة الله عز وجل فيما صنع، أما نظريات التطور فهي التي تزعم أن الإنسان أو الحيوان تتطور من حال إلى حال إلى حال، خلال أزمنة وهذا ما لا يقر به العلم قط.

والآن ندع الإنسان ونلتفت إلى المكونات الأخرى التي من حولنا ما الذي يجب أن نعرفه منها في رحلة معرفتنا لبحوث العقيدة الإسلامية؟ يجب أن نعلم أولاً أن هذه المكونات مسخرة للإنسان منذ فجر وجود الإنسان الكون مسخر للإنسان منذ فجر وجود الإنسان وليس كما يقول الغيبون من من يتمشدقون بألفاظ العلم: من أن الإنسان القديم كان عاجزاً أمام الطبيعة وكان يرتعد منها ويخاف وكان يرى كل شيء في الطبيعة مخيفاً وألجأه الخوف من الطبيعة إلى الإيمان بالمغيبات والإيمان بالله عز وجل، هذا كلام سخيف الإنسان العاقل يسمو عنه من الذي رحل إلى الماضي وجاء بهذا النبأ؟ من أين هذا الكلام الغيبي الذي يعوزه السلم العلمي؟ هذا الكلام لا ندخل عفونته في عقولنا أيها الإخوة من الذي قال هذا الكلام أما الله عز وجل الذي خلق آدم وأسكنه هذه الأرض وعلمه إذ علم الكلمات التي أنبأه بها علمه كيف يستغل الأرض كيف يزرع كيف يفلح كيف يستخرج الماء وعلم آدم ذلك أولاده هذا الإله يوضح لنا أن الكون منذ أقدم عهود الإنسان مسخر لك مسخر للإنسان.

ولكن الأكوان مسخرة للإنسان بإحدى طريقتين الطريقة الأولى الطريقة الذاتية المباشرة يعني خدمة الكون بهذه الطريقة للإنسان لا تتوقف على عمل معين منه فضلاً عن أن تتوقف على علم وعلى دراية معينة بأصول استغلال الطبيعة فمثلاً الكون يكرمنا البارئ عز وجل بأقطاره البارئ عز وجل يكرمنا بنبات الأرض البارئ عز وجل يكرمنا باللبن الذي في ضروع الأنعام هذا كله مسخر لنا سواء كنا نتعلم أو لا نتعلم فالبارئ عز وجل يأمر سماءه فتمطر ويأمر أرضه فتنبت ويأمر النبات فيعطي ثماره ويعطي

حُبُّه ويعطي فواكهه مما يحتاج إليه الإنسان سواء تعلم الإنسان من استغلال الطبيعة أو لم يتعلم هذا النوع من التسخير قائم منذ أقدم العصور النوع الثاني من التسخير تسخير يحتاج إلى نوع من الممارسة ومن ثم يحتاج إلى علم هذا التسخير يتوقف فعلاً على أن يتعلم الإنسان فمثلاً الباري سبحانه وتعالى أودع في الأرض كنوزاً أودع فيها مدخرات وهذا الذي أودعه الله سبحانه وتعالى في الأرض من معادن من مياه من مدخرات كل ذلك نوع من التسخير لنا لكن مفتاح الاستفادة من هذا كله أن نتعلم وأن ندرس ثم نستغل الباري سبحانه وتعالى أكرمنا بالشمس الشمس مسخرة لنا على درجتين الدرجة الأولى لا تحتاج منا إلى جهد تبعث أشعتها إلينا فنجد فيها العافية وتبعث أشعتها إلى النباتات فتتنامى بذلك النباتات بدون جهد منا لكن في الشمس طاقات أخرى كامنة تتوقف على علم تتوقف على أن نتعلم كيف نجمع طاقة الشمس هذه في توربينات وكيف نولد منها طاقات حرارية تفيدنا في صناعاتنا النار طاقة نستخدمها وبمقدار ما نتعلم وندرك من حقائق النار وخلفياتها نستطيع أن نستغلها لمنافعنا ومصالحنا فالكون إذن مسخر للإنسان على درجتين درجة بدائية يستوي فيها العالم وغير العالم ودرجة أخرى تتوقف على أن نتعلم فنستغل هذه المكونات وأي كان الأمر فظاهرة التسخير لا فرق فيها بين مؤمن وكافر الله عز وجل سخر كونه سماءه أرضه نجومه أفلاكه لعباده المؤمنين منهم والكافرين ولا يحجب الإنسان عن استغلال هذه الأكوان المسخرة إلا جهله وليس للإنسان مفتاح يستغل به الطبيعة إن صح التعبير إلا العلم ولا فرق في هذا بين مؤمن وكافر وانظروا إلى قرار الله في بيان هذه الحقيقة إذ يقول (كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً).

ولذلك أظن أن كلامي هذا يتضمن جواباً عن سؤال قد يطرحه بعض الإخوة فيقول نحن مسلمين عباد الله المؤمنون به ولكن الكون ليس مسخراً لنا كما سخر للكافرين والذين شردوا عن الإسلام فما نحن نراهم كيف يعتصرون الطبيعة ويستفيدون منها أما نحن ففقراء إلى أقل من عشر ما يستفيدة الغربيون؟ الجواب: تعلموا فاكثبوا وجهلتم فوقتم حيث أنتم الله عز وجل جعل مفتاح الاستفادة من الأرض وكنوزها العلم فلماذا لم تتعلموا والمسألة هنا ليست متعلقة بدين لأن الله قال (كلاً نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً) فما هو موقفنا إذن أيها الإخوة ممن يقول الإنسان القديم فوجئ بالرعود القاصفة والبروق التي تخطف الأبصار ولا عهد له بها فارتعدت من ذلك فرائصه وخشي الطبيعة واتخذ منها موقف الند من الند وهكذا فاض قلب الإنسان القديم خشية من الطبيعة مما

ألجأه إلى الإيمان بقوي قوة مطلقة وهو الله عز وجل ليلجأ إليه ضد الطبيعة ما موقفنا من هذا الكلام موقفنا بكل بساطة أن هذا الكلام كلام غيبي لا يرفده دليل علمي ونظراً إلى أن هذا الكلام يعوزه الدليل العلمي كلام غيبي خرافي ونظراً إلى أن الله أنبأنا في كتابه أنه سخر لنا الكون **(وسخر لكم الليل والنهار دائبين وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه)** والباري عز وجل يكرر هذا الكلام تكراراً كبيراً وفي حديثه عن آدم من أول يوم أوضح له كيف أنه سلمه الأرض بمقاليدها هذا القرار الذي أصغينا إليه من كلام الله عز وجل كما أصغينا إلى خبر الله عن أصل الإنسان هو الذي يكفيننا شر هذا الوهم الخرافي الذي يردده بعض الناس فإذا عرفنا هذه الحقيقة ماذا بقي بعد ذلك بقي بعد هذا أن نسخر الكون لأنفسنا ولكن طبق المنهج الذي عرفنا به القرآن ماذا قال لنا وهو يعرفنا بهذا المنهج قال **(وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك)** لا أريد أن أفصل القول في هذا فتفصيله يخرجنا عن نطاق محاضراتنا هذه ولكن هذا الكلام فيه الوفاء بكل ما تتطلبه يريد الله عز وجل منا أن نستمتع بكل خيرات الأرض وأن لا نتقاصر ولا نقصر في استخدام الكون لمصالحنا بشرط واحد هو أن نجعل ذلك كله مطية للسير على صراط الله عز وجل وغذاء لتنمية معنى عبوديتنا لله سبحانه وتعالى فننشئ من خلال ذلك على الأرض حضارة تسبح بحمد الله تعلن عن عظمة الله ووحدانية الله وهو خلاصة المعنى الذي نجده في قوله عز وجل **(هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها)** وتفصيل هذا الكلام له مجال آخر يمكن أن يعود إليه من يريد تفصيل القول في ذلك.

الشيء الثاني الذي يجب في نطاق العقيدة الإسلامية أن نعلمه عن المكونات قانون السببية في الكون يجب أن نعلم وأن نحلل قانون السببية في الكون تحليلاً علمياً دقيقاً وإلا لتطوحننا في أودية الضلال والكفر فما هو قانون السببية في الكون هنالك ظاهرة واضحة يستوي في رؤيتها الناس جميعاً من مسلمين وغير مسلمين ما هي؟ هي أننا عندما ننظر إلى المكونات التي من حولنا نجد أنها عبارة عن عالم من الأسباب والمسببات عبارة عن عالم من العلل والمعلولات المكونات كلها هكذا فأنت تنظر إلى البحار تجدها سبباً للأبحر تنظر إلى الأبحر تجدها سبباً لانعقاد السحب تنظر إلى السحب تجدها سبباً تجدد الرياح سبباً لتكاثف هذه السحب وتسيارها تنظر إلى السحاب والرياح تجدهما سببين لهطول الأمطار مع الرطوبة الجزئية المشروطة تنظر إلى هذه الأمطار مع تفاعلها مع التربة تجد ذلك سبباً للنبات تنظر إلى

النبات فتجده سبباً للغذاء تنظر إلى الغذاء فتجده سبباً للعافية في كيان الإنسان وهكذا إلى ما لا نهاية عالم من الأسباب والمسببات في هذا الكون ولكن أيها الإخوة لاحظوا هذا إذا نظرنا إلى الكون نظرة سطحية نجده مليئاً بالأسباب والمسببات لكن الملاحظ أننا إذا تعمقنا تركنا السطح وأخذنا نسبر الغور نجد أن هذه الأسباب تبدأ بالتناقص تبدأ بالتناقص تبدأ بالتناقص بشكل مخروطي حتى إذا سبرنا الغور أخيراً وجدناها تعود إلى سبب واحد فنحن في الأمثلة التي ذكرناها البحر والأبخرة والسحب والرياح ونحو ذلك إذا تعمقنا تعمقاً علمياً نجد أن الطاقة الشمسية هي منبع هذه الأسباب كلها فهي التي تهيج هذه الأسباب ولذلك يسمون الشمس في بعض ما يطلقون عليها الطاقات وإذا نظرت إلى حركة الأفلاك وجدتها تحصر عالم الأسباب والمسببات فيما يتعلق بالليل والنهار والشمس والقمر وما إلى ذلك والآثار الناتجة منهما تجد ذلك عائداً إلى لون الحركة الكونية للأفلاك وهكذا فعندما تنظر إلى المكونات نظرة سطحية تجد عالماً لا يتناهي من الأسباب كالذي ينظر إلى الشجرة من أعلاها يجدها أغصاناً يضل فيها ولكن كلما سبر الغور وسبر الغور وسبر الغور تماماً كالشجرة يجد الأغصان قد قلّت ثم قلّت ثم وجد نفسه أمام جذع واحد وها هنا في نظرنا للكون عندما نتابع التدقيق والتعمق نجد أنفسنا أخيراً أمام سبب واحد ما هو فاعلية الله عز وجل للكون عندئذ تذوب المكونات لا حركة الأرض ولا الشمس ولا القمر ولا الرياح كل ذلك جند من جنود الله عز وجل كان الإنسان ينظر إلى الجنود وهم يتحركون ويضربون ويقصفون فيتصورون أن الجنود هم الأسباب لكن لما دقق وحقق ووجد القائد الذي يدير العمليات الحربية من غرفته علم أن ينبوعها هنا فالذي يدير الكون كله هو الله عز وجل وما هذه الأسباب الكثيرة الكثيرة التي نراها إلا جنداً لله **(وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر)** إذن يجب أن نعلم هذه الحقيقة أن الأسباب والمسببات كلها تعود أخيراً إلى المسبب الأوحد وهو الله عز وجل هنا قد يرد اعتراض أو سؤال وهو إذا كان الكون مليئاً بالأسباب والمسببات يعني البحر سبب الأبخرة والأبخرة سبب للسحب والسحب سبب للأمطار والأمطار سبب للنبات طيب ونحن نعلم فيما عرفناه من قواعد الفلسفة ومصطلحاتها أن السبب ينتج مسببه حتماً وإلا لا يسمى سبباً فإذا كان هذا الكون فيه أسباب تنتج مسبباتها حتماً فقد عادت فاعلة بالذات وعادت كأها آلهة مع الله عز وجل كيف يمكن أن نفهم هذا الجواب هو التالي أننا نسمي فعلاً هذه المظاهر الكونية أسباباً ومسببات ولكن يجب أن نعلم أنها ليست أسباباً فلسفية بالمعنى الطبيعي الذي نراه في كتب الفلسفة اليونانية هي أسباب جعلية أي مجازية

الله هو الذي جعل المطر فيما تراه أعيننا سبباً للنبات والنبات جعله الله سبباً للغذاء والغذاء جعله الله سبباً للشبع فيما تراه أعيننا لذلك يقول العلماء عن هذه الأسباب الكونية يقولون إنها أسباب جعلية أي جعلها الله سبباً فلو أن إنساناً تصور أن الطعام يشبع بطبعه فقد كفر لا يوجد شيء يحقق شيئاً بطبعه ولو أن إنساناً تصور أن الماء ينبت البقل بطبعه لكفر فنحن نرى في الكون ظاهرة السببية ولكن يجب أن نعلم أن ظاهرة السببية هذه ليست تحليلها السببية المطلقة الحقيقية كما يقول الفلاسفة لا بل هذه الأسباب كما قلت الآن كجنود ينفذون ولكن القائد بيده كل شيء فهم أسباب شكلية أو مجازية أسباب جعلية ولنقف قليلاً عند كلمة الأسباب الجعلية ما معنى أسباب جعلية أي أنه لا يوجد في الواقع سبب ولا مسبب لكن في اقتران دائم بين النار والاحتراق منذ صغري منذ فتحت عيني على الكون أجد أن الورق أو كل شيء قابل للاحتراق يحترق إذا لامس النار هذا الإقتران المستمر جعلنا نسمي الأول سبباً والثاني مسبباً نعم وليس هنالك من وراء هذا أي معنى للسببية

واسمعوا كلامي جيداً وهو كلام فيه شيء من الدقة وهو كلام ينبغي أن يعرفه العلماء قبل علماء الدين قد يقول قائل ما هذا الكلام؟ أنا أعلم أن النار سبب للإحراق وأن الماء سبب للري كيف تقول لا يوجد لا توجد علاقة سببية بين النار الذي يحرق والهشيم الذي احترق كيف تقول هذا الجواب ما هو الشيء الذي نراه في عالم الأسباب والمسببات أيها الإخوة نرى اقترانات فقط نحن نرى ماءً هطل من السماء ثم نباتاً اخضر على وجه الأرض نرى ناراً والنار أوضح مثال ناراً تلتهب ثم قذفنا فيه ورقة أو هشيماً فرأيناه يحترق هنالك إذن اقتران بين النار والاحتراق بين الماء والخضرة التي تظهر على وجه الأرض هذا الاقتران هو الذي نراه فقط هو الذي ترصده أعيننا فإذا قلت هذا الإقتران دليل على علاقة حتمية بين النار والاحتراق إذن لا يمكن إلا أن تحترق هذه الورقة كلما قذفت في النار فأنت إن قلت هذا الكلام فضولي في كلامك تجاوزت ميزان العلم لك أن تمسك بورقة وتقذفها في النار فإن رأيتها احترقت تعطي قراراً علمياً لهذا الواقع هذه الورقة احترقت هذا كلام سليم لكن أن تقول كلاماً غيبياً تغمض العين وتقول لا يمكن إلا أن يحترق الهشيم في النار كلما ألقى فيه من أين لك هذا ليس لك دليل على هذا قط نحن نرى الاقترانات فقط أما حتمية العلاقة بين ما نسميه سبباً ومسبباً بغير ظاهرة ولا دليل عليها أبداً بشكل من الأشكال ونحن هنا نتذكر قاعدة علمية تقول العلم يتبع المعلوم وليس المعلوم يتبع العلم يعني الشيء يكون قائماً على الصعيد الواقعي أولاً ثم أنظر إليه فتنعكس صورته إلى عقلي وعندئذ يكون هذا علماً

فالعلم ظل للواقع ظل للمعلوم إذن المعلوم يوجد أولاً ثم يوجد العلم به ثانياً إذا عرفنا هذا فلنلتزم بهذا المبدأ طيب نحن نرى النار ونراه إذ تحرق هذا هو المعلوم نضع هذا المعلوم في ذهننا ونقره لا يجوز أن نزيد عليه فإن أغمضنا العين وقلنا ولسوف يحترق الهشيم بعد اليوم أيضاً ولسوف يحترق كل من ألقى نفسه في النار أيضاً فهذا ليس علماً لأنه علم لا يتبع معلوماً ظل لا حقيقة له فهو وهم وخيال ولذلك يقول العالم التجريبي الوضعي دافيد هيوم المشهور يقول إنك لو رأيت مليون مرة أن هشيماً أحرقت النار لا تستطيع أن تدلي بقرار علمي للمرة الزائدة على المليون إلا إذا أحرقت الهشيم فعلاً فاحترق وإلا فالمسألة ظن نعم ولا يمكن أن نعطي قراراً علمياً إذن نحن نرى في عالم المكونات اقتران أشياء بأشياء ما الذي أدرك أن هذا الإقتران يحوي جسراً من العلاقة الحتمية خصوصاً وقد آمنّا بالله عرفنا أنه مسبب الأسباب الأسباب كلها ما أدرك أن الله خلق الاحتراق عند ملامسة النار للهشيم ما أدرك أن الله يخلق في كياناتك الشيع عندما تتناول الطعام ما أدرك أن الله يخلق الري عندما تشرب الماء الله هو الخالق إذن ماذا بقي مما نسميه الأسباب والمسببات إقترانات فقط وأنا أضرب لكم مثلاً يقرب هذا تقريباً كبيراً إلى العقل هنالك ما يسمى بقانون رد الفعل الشرطي الذي ينسبه بعض علماء النفس إلى بافلوف العالم الروسي وهذا قانون رد الفعل الشرطي معروف في كتب التراث الإمام الغزالي تكلم عنه كلاماً مفصلاً في كتابه العظيم المستصفى ليس هذا محل بحثنا المهم أن نظرية رد الفعل الشرطي تقوم على رصد الحقيقة التالية أن مؤثراً صناعياً إذا صاحب مدة طويلة مؤثراً طبيعياً فإن هذا الشيء الصناعي يصطبغ بخصيسته المؤثر الطبيعي ويأخذ شكله هذه خلاصة الأمر بافلوف ممن انتبه إلى هذا وأجرى على ذلك تجربته المشهورة مع الكلاب فماذا صنع عمد إلى أربعين أو خمسين كلب كان يجمعها في مكان ويجمعها جوعاً شديداً ثم يقدم لها الطعام مصحوباً بجرس يقرع فتري عين الكلاب الطعام وتسمع أذنها الجرس وهكذا أخذ يكرر الأمر أربعين أو ثلاثين يوماً كلما قدم لها الطعام ورأت الطعام واستجابت لرؤية الطعام وسال لعابها قرع سمعها صوت جرس يقرع أخيراً بعد مرور أربعين يوماً أو أقل أو أكثر قرع لها الجرس ولم يقدم طعاماً فركضت الكلاب كالعادة وسال لعابها لماذا لأنها تصورت أن قرع الجرس يعني حضور الطعام لماذا الكلاب عندما وجدت الاقتران المستمر المستمر أربعين أو خمسين يوم بين قرع الجرس والطعام ظنت على قدر عقلها أن قرع الجرس سبب لحضور الطعام بسبب هذا الإقتران الدائم فلما استقر هذا الوهم في نفسها وسمعت رنين الجرس لم تصدق إلا أن الطعام سيحضر هذا الذي نقع نحن أيضاً فيه تماماً كما وقع مع عالم الكلاب

رأينا دائماً أن الاحتراق مصاحب لملامسة النار قلنا إذن كلما لامس جسم النار سيحترق كما ظنت الكلاب أنه كلما قرع الجرس سيحضر الطعام نعم ولو كان للكلاب لسان مبين لفلسفت هذا التصور كما يفلسفه الملاحدة عندما يؤلهون الأسباب تماماً ولكن طبعاً هذا وهم هذا داخل في وهم كما يسميه الغزالي سبق التصور إلى العكس فما ينبغي أن نقع في الوهم الذي وقع فيه تلك الحيوانات لا سيما وقد عرفنا أن قوة الله كامنة وراء هذا كله الباري عز وجل مليون سنة يجعل النار مصاحباً للإحراق ثم عندما يشاء يفصل بينهما يفصل بينهما إذا عرفنا هذه الحقيقة فلن يصعب علينا إدراك الخارقة التي أجراها الله لأنبيائه ورسله لن نعجز إطلاقاً من المعرفة والإيمان بأن النار التي استوقدها نمرود لسيدنا إبراهيم لم تحرقه ولا إشكال في هذا أبداً نعم ماذا يقول الله سبحانه وتعالى قال **(وحررقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم)** انتهى الأمر لأن الذي سخر النار للإحراق هو الله والنار أقل من أن توجد فيها طبيعة الإحراق الله هو الذي يحرق الله سبحانه وتعالى هو الخالق لهذا كله وأنا أعجب من إنسان عندما يسمع كلام الله عز وجل **(قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم)** أعجب كيف يشمخر بأنفه ويقول أنا رجل علم ولا أتعامل مع المعجزات ولا أتعامل مع الخوارق لو كان رجل علم حقاً لفهم الكلام الذي كنا نقوله الآن ولفهم القاعدة العلمية القائلة العلم يتبع المعلوم وليس المعلوم هو الذي يتبع العلم وهذا الكلام يجعلنا نطل إطلاقة صغيرة على المعجزات والخوارق في الكون هل هي متعارضة مع العلم إن كانت متعارضة مع العلم فنحن نرفضها ولكن الجواب باختصار المعجزات لا يمكن أن تعارض العلم أو أن يعارضها العلم قط بل العلم لا شأن له بالمعجزات أبداً العلم عبارة عن جهاز يسجل الواقع العلم يرصد واقعاً ولا يتنبأ بمستقبل ذلك لأن العلم ينهض على دليل من التجربة والمشاهدة ولذلك فلو سئل العلم ماذا تقول في الخوارق سيقول لك ليس هذا من شأني شأني أن أحمل أجهزي وأنظر يميناً وشمالاً فإذا رأيت واقعة وقعت خارقة أم غير خارقة مهمتي أن أرصد هذا الواقع وأحلله وأعلله وأستخرج منه قانوناً هذه هي مهمتي ولذلك فالعلم لا شأن له بالمعجزات لا سلباً ولا إيجاباً المهم أن هذا الواقع حصل إن قلنا نعم فإن العلم يرصد هذا الواقع ويعتبره أمراً خارقاً وانتهى الأمر بل إذا تأملنا أكثر سنجد أنه لا فرق بين المعجزة وغير المعجزة أي لا فرق بين الخوارق العجيبة والأمور المألوفة لا فرق في ميزان العلم كل ما يوجد بينها من فرق صاغه الإلف فرق وهمي نسجه الإلف ونسجته العادة فنحن ألفنا أشياء هي في أصلها عجيبة جداً وأعجب من بعض المعجزات لكن لما ألفناها لم نعد نعجب منها

وهناك أشياء أخرى طواها الخالق عز وجل فلم نألفها لذلك عندما يشاء أن يوجدها نعجب جداً ونذهل ونظن أنه أمر يخالف العلم نحن نعلم أن الأشجار تموت موتاً موسمياً تموت في الخريف وتبقى ميتة كالخطب اليابس في بساينها إلى أن يأتي ربيع العام القادم وإذا بهذه الأشجار الميتة عادت تتمطى من جديد ودخلتها الحياة والخضرة من جديد لأننا تعودنا على هذا لم نعد نعجب بل إننا نخلل ونعلل هذه الظاهرة أما الإنسان الإنسان لم يعتد أن يرى إنساناً آخر مات ودفن وبعد سنوات عاد إلى الحياة ولذلك لو قيل لنا إن إنساناً مات وبعد سنة عاد إلى الحياة ربما لا نصدق نعم لأننا لم نألف هذا الشيء لا لأنه غير ممكن ولكن لأننا لم نألف هذا الشيء بمعنى لو أن الله اقتضت حكمته أن يموت الناس أيضاً موتاً موسمياً كما تموت الأشجار بحيث يموت الإنسان فيدفن في القبر بعد أربع سنوات مثلاً أو أكثر أو أقل يهطل من السماء مطر معين في ميقات معين وإذا بأسفل القبر أو أعلاه تفجّر بما يشبه نباتاً ثم تنامي هذا النبات وإذا به الشخص الميت وبعد مدة من الزمن قذفت الحياة في كيان هذا الذي خرج من قبره وعاد مرة أخرى إلى داره لو عودنا الله هذه الظاهرة لما تعجبنا منها ولكننا ندرسها اليوم في الجامعات ولقلنا إن التربة تفاعلت مع العظام وتفاعلت مع المياه الغامرة وهكذا فيا عجباً لإنسان يذهب نفسه ضحية المألوف شيء ألفته أصبح ممكناً وشيء لم تألفه أصبح غير ممكن أي سخف هذا خصوصاً وقد عرفنا أن الله عز وجل موجود الإيمان بالله عز وجل يحطم هذه القيود كلها وبعد هذا إذا عرفنا هذا الموضوع هذا أمر هام جداً أيها الإخوة يجب أن نعلم إذن هذه هي النتيجة أن الله هو مسبب الأسباب كلها وأنه ليس هنالك شيء في الكون له أي فاعلية وإنما هي فاعلية الله عز وجل فليس هنالك طبيعة وليس هنالك إنسان ولا حيوان يؤثر شيئاً ولو كان هذا الإنسان رسولاً أو نبياً يقول الله عز وجل **(ليس لك من الأمر شيء)** ولو أن إنساناً نسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً من الفاعلية الذاتية لكفر قولاً واحداً هذا ما يجب أن نعلمه ونعتقد به فإذا عرفنا هذا هل يجوز لنا أن نطلق اسم الأسباب على ما نراه بحسب الظاهر سبباً نعود إلى أصل الموضوع نرى بحسب الظاهر أن الماء سبب للري والنار سبب لنضج الطعام والدواء سبب للشفاء هل هنالك مانع من أن نسمي الدواء سبباً للشفاء ونتعامل بهذه الطريقة لا مانع بشرط أن نعلم الحق الذي قلناه الآن تكلم لأن اللغة ضيقة واعلم أن كلمة سبب مجاز قل الدواء لا مانع أن تقول الدواء شفاي وطبت على يد فلان من الأطباء وهذا الطعام أشبعني لكن على أن لا تنسى أن هذا كلام مجازي وأن الله هو الخالق وهو الفاعل وهو المسبب وكل شيء بيد الله عز

وجل إذا وجدت العقيدة السليمة فلا مانع من استعمال الكلام المجازي عندما تضيق بالإنسان الحيلة كلنا نقول مثلاً ذهبنا إلى الطبيب الفلاني فشفيت على يده يقول الرجل المريض للطبيب خلصني من هذا الألم الذي أعاني منه ولو دققنا لرأينا أن كلمة خلصنا لا تقال إلا لله نعم وكلنا يمكن أن يقول الواحد منا أن فلاناً ألقى نفسه في النار فأحرقتة النار.

ولكن هذا الكلام لا يؤثر ما دامت العقيدة سليمة وهذا المعنى يجرنا إلى كلمة موجزة نقولها فيما يتعلق بالتوسل بالأنبياء والرسل يعني لو أن إنساناً توسل إلى الله بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم لا ضير في ذلك كما أنه لا ضير في أن يتوسل المريض بالطبيب بشرط أن يكون كل منهما موقناً بأن الفائدة تأتي من عند الله عز وجل يعني الرجل الذي يتوسل برسول الله ينبغي أن يكون متنبهاً عليمًا بأن رسول الله لا يفيد شئاً وأن الله هو الذي يعطيه وهو الذي يشفيه وهو الذي يعافيه إذن لماذا لجأ إلى رسول الله لجأ إلى رسول الله كما لجأ المريض إلى الطبيب كيف كما أن الله جعل الطبيب سبباً جليلاً لشفاء المرضى جعل محمداً رحمة للعباد ألم يقل **(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)** وقد علمنا أن محمداً عليه الصلاة والسلام حبيب إلى ربه مكانته عالية جداً وطبيعي بهذه الحالة أن يجعل الباري عز وجل كثيراً من الناس يغفر لهم بشفاعته محمد عليه الصلاة والسلام هذا هو الذي يجعل الإنسان إن شاء أن يتوسل به فيقول اللهم إني أسألك بجاه رسولك محمد صلى الله عليه وسلم أن تغفر لي فالله هو المسؤول والدعاء يتجه إليه ولكننا نستشفع برسول الله وقد علم رسول الله ذلك الأعمى كما ورد في الحديث الصحيح أن يذهب إلى المضأة فيتوضأ ويقوم ويصلي ركعتين ثم يقول اللهم إني أتوجه إليك بجاه نبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني أصل الدعاء هكذا اللهم إني أسألك بجاه نبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك في قضاء حاجتي لتقضى اللهم فشفعه فيّ يا كريم. لا ضير إذن في هذا ونحن نتكلم في قانون الأسباب والمسببات والمشروط أن تكون العقيدة راسخة وأن يكون الإيمان بالله سليماً ومتوافراً ومتكاملاً هذه خلاصة ما ينبغي أن نعلمه من الكونيات من علاقة الإنسان بالكون وعلاقة الكون بالإنسان وكيفية تسخير الإنسان الكون لمصلحته بعد هذا يأتي دور الحديث عن الأمور الغيبية بدأنا أولاً حديثنا عن الإيمان بالله ثم الإيمان بالنبوات وعرفنا الجسر الواصل بينهما ثم نقلنا الحديث عن النبوات الحديث عن القرآن إلى الأكوان ثم إن القرآن ينقلنا إلى آخر قائمة من قائمة المعتقدات التي ينبغي أن تتوافر في كياننا ألا وهي قائمة الغيبيات.

وأعيد إلى الذاكرة أيها الإخوة معنى كلمة الغيبيات ماذا نعني بها أريد هنا أن أركز تركيزاً دقيقاً لأن كثيراً من الملاحدة يحاولون أن يتصيدوا إيمان المؤمنين عن طريق هذه الغيبيات يصورون للناس أن الأمور الغيبية تتعارض مع العلم وأن الإنسان ينبغي أن يكون رجل علم وإذا كانت الأمور الغيبية متعارضة مع العلم والإسلام يتبنى الغيبيات إذن فالإسلام يتعارض مع العلم هذا الكلام كلام سخيف لكنه خطير على إنسان غير مثقف ما معنى الغيبيات الأمور الغيبية هي كل ما لا يقع تحت حس الإنسان إما لأنه ماضٍ سحيق انقطعت الجسور الواصلة بيننا وبينه وإما لأنه أمر من أمور المستقبل التي لم تقع بعد بسبب هذا تسمى هذه الأمور أموراً غيبية أقول هل يمكن أيها الإخوة للإنسان أن يقطع عقله ونفسه عن المغيبات أي عن الأمور الماضية التي انقطع بيننا وبينها السبيل والأمور الآتية التي لم تقع والتي لم تحصل بعد هل يمكن للإنسان وأنا أسأل الذين يتمشدقون بألفاظ العلم ويقولون نحن لا نتعامل بالغيبيات هل يمكن لإنسان فعلاً أن يكون عاقلاً ثم لا يتعامل بالغيبيات كل إنسان منا إذا ضجع إلى نفسه سيجد أن سلوكه في الحياة إنما يتحقق بدافعين دافع من الغيوب الماضية ودافع من الآمال المستقبلية فأنا عندما أتحرك في تجارة في زراعة في صناعة في تعلم في وظيفة يدفعني إلى هذا إيمان بغيب أعتبر به عبر الماضي الناس الذين كانوا من قبلي كيف كانوا يعيشون وبدافع من الآمال الآتية وهذا غيب آخر ولو أنني قطعت نفسي عن الآمال المقبلة هذا غيب وعن الاعتبار بالماضي لأصبحت مجنوناً الإنسان الذي يتحرك دون اهتمام بماضيه ولا اندفاع في الحاضر هو الذي يسمى فعلاً بحق مجنون ولما كان له إلا البيمارستانات إذن هنالك منهج علمي لما يتعلق بالغيبيات يعني الإنسان لا يمكن إلا أن يتعامل بالغيبيات ولكن الإنسان العلمي لا يتعامل مع أي نوع من أنواع الغيبيات وإنما يتعامل مع الغيبيات التي وزنت بميزان العلم فبرهن العلم على أنها حقيقة علمية ولأضرب مثلاً قبل أن نأتي إلى موضوعنا في أمور الغيبيات في العقيدة حياتنا اليومية الإنسان الذي يعيش في دولة يطلع أو يسمع في أجهزة الإعلام يسمع قانوناً جديداً أصدرته الدولة يتلخص هذا القانون في أن من ارتكب الجريمة الفلانية مثلاً وثبتت عليه الجريمة يعاقب بالإعدام هذا قانون ويصغي فيتأكد أن الدولة هي التي أذاعته ويجد أنه نشر في الجريدة الرسمية وبتوقيع رئيس الدولة ليس هذا أمراً غيبياً لم يوجد أحد بعد ارتكب هذه الجريمة ومن ثم فلم ينفذ حكم الإعدام في حق أحد من الناس بعد إذن هذا كلام غيبي كالغيب الذي يخبرنا به الله عن معاقبة الكافرين يوم القيامة ومع ذلك فأنت تجد الملحد والفاجر والفساق والكافر والوجودي والشيوعي ينسجمون مع هذا الحكم الغيبي

ويتخذون وقايتهم ضد الوقوع في هذه الجريمة لماذا أليس هذا أمراً غيبياً لو سألنا لعلمنا السبب هذا أمر غيبي ولكنه قائم على منهج علمي ما هو المنهج العلمي أنه سمع الخبر بشكل متواتر منقولاً إلى مصدره الموثوق به ألا وهو رئيس الدولة فلما وصل الخبر إلى مصدره وهو رئيس الدولة علم صدق هذا الخبر الغيبي فإذا أخبرنا الله عن أمر غيبي لم يقع بعد أما ينبغي وقد وصلنا الخبر بيقين أما ينبغي أن نتفاعل معه كما نتفاعل مع هذه الأخبار الغيبية التي تأتي من الناس بعضهم لبعض وموعداً لشرح هذا الكلام وتفصيل القول فيه محاضرة قادمة بإذن الله والحمد لله رب العالمين.

